المجتمع الاسلامي
في المدينة المنورة
في عصر الرسالة

بقلم
الأستاذ الدكتور / أكرم ضياء العمري
الأستاذ بكلية الدعوة
بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

لم تكن ثمة فترة في تاريخ الاسلام، تطابقت فيها تعاليمه مع واقع المسلمين كما حدث في عصر الرسالة والخلافة الراشدة.

كانت عدة عوامل تولد ذلك التسامي الروحي السامق والتعاطف الاجتماعي العميق والسلوك الإنساني الايماني الرفيع، وتفتح البصائر على الحياة، معناها ومسؤوليتها وغائيتها..

كان الخطاب القرآني ببيانه المعجز واضحاً في مبانيه ومعانيه لأنه تبنى لغة قريش وأساليبها ومدلولات ألفاظها، فلم يحظ جيل بتطابق لغته اليومية المألوفة مع لغة الوحي كما حظي ذلك الجيل.

وكان تذوق المجتمع للغة وحبه لها وتفننه فيها وتكريمه للمجيدين لها من الشعراء والخطباء من عوامل الاحساس العميق بالاعجاز البياني للخطاب القرآني.

وكان لوجود «الرسول» في ذلك المجتمع أثر عظيم في تعميق التربية الايمانية واليقظة الروحية، فقد تمكن حقا من تحقيق الاحياء الذي سجله الخطاب القرآني وطالب الناس بالاستجابة له ﴿**ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾.

وانعكست تعاليم الاسلام في قلوب الناس، كما تنعكس الصور في المرايا دون غبش ودون تحريف، إذ لم تخالط الا الفطرة الصافية من العقائد والفلسفات ولا شك أن الشرك يعكس «بدائية» ولا يولد «فلسفة» فما ان انزاح غبشه حتى عاد للمرآة صفاؤها. وبدأ تشكيل المعتقد الجديد والرؤية الجديدة للحياة واتضحت معالم وسنن الحياة فأنضجت العقول وحركت الوعي وكشفت عن قوانين الاجتماع بوضوح.. وهكذا تكون «الفرد» و«المجتمع» و«الدولة» و«الامة» وتحددت المفاهيم والعلاقات والرؤى من خلال الوحي الالهي، وقد انحصر التلقي في دائرة الوحي في مجتمع المدينة في عصر الرسالة والخلافة الراشدة، حيث منع التلقي عن المشركين (لا تستضيئوا بنار المشركين)[1] - أي لا تستشيروهم كما قال الحسن البصري - وكذلك منع التلقي عن أهل الكتاب.

ان القرآن غض طري، ويخشي من كل تداخل وغبش واختلاط، فلابد أن تكون المصادر مستقلة والرؤية واضحة لتتمكن الأمة من تقديم الرسالة الاسلامية للناس خالصة

(١) النسائي: المجتبي ٨/ ١٧٦ - ١٧٧.

مبرأة من كل شوائب العقائد والفلسفات، لكن هذا لم يمنع من الجدال والحوار مع الأطراف الأخرى والذي تطور الى مؤلفات في الأديان المقارنة كما صار فيما بعد على يد الشهرستاني وابن حزم وآخرين...

ولكن صيانة الدين في مجتمع المدينة كان ضرورة لازمة في أول عهد عهد التنزيل. من هنا كان الحرص على استقلال مصادر التلقي.

وقد أثمر ذلك كله واقعاً اجتماعياً متميزاً عن المجتمعات الأخرى التي عرفها التأريخ الانساني، فلأول مرة ينجح نبي في اقامة مجتمع واسع وفق تعاليم رسالته وبناء صرح دولة تقوم على تلك التعاليم أيضاً...

ان السمت العام لذلك المجتمع هو الاحساس بالانتماء والمحبة والاخوة، والاستعلاء على الحسد والحقد والبغضاء مما أكسب الحياة جمالاً روحياً وجعل العلاقات الاجتماعية شفافة دافئة تملأ النفوس بدفقات الحب والتراحم والتضامن في مواجهة أعباء الحياة ومسؤولياتها.

كان التوجيه النبوي واضحاً في تدعيم الأسرة والحث على تثقيفها فقد أمر الصحابة «ارجعوا الى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم». [(١)]

والاهتمام باشاعة الهدوء والسلام والحب والوئام والتعاون والانسجام في البيت ليكون سكناً صالحاً للأسرة ومحضناً جيداً لرجال وأمهات المستقبل، وكانت الأوامر النبوية واضحة بالمساواة بين الأبناء الذكور والاناث في العطاء المعنوي والمادي، وكانت الوصية بالبنات أكثر وروداً بسبب جنوح العرب إلى تفضيل الذكور «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة». [(٢)]

ومعلوم أن الخطاب القرآني حرّم وأد البنات لأي إعتبار سواء يتصل بخوف العار عند وقوعهم بالأسر أم بخوف الجوع. ولاشك أن هذا انعكس على النمو البشري للمجتمع الإسلامي الأول رغم أن الوأد كان ينحصر في قبائل معينة قبل الإسلام.

وكانت توجيهات الرسول (ﷺ) واضحة بمنع استخدام العنف في داخل الأسرة وما يولده من ضغوط وعقد نفسية واجتماعية (خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهلي). [(٣)]

---

(١) البخاري كما في فتح الباري ٢/ ١١١ حديث رقم ٦٣١.
(٢) أبو داود: سنن ٥/ ٣٥٤ حديث رقم ٥١٤٦.
(٣) الترمذي: سنن ٥/ ٧٠٩ حديث رقم ٣٨٩٥.

ولكن هذه التوجيهات اقترنت بتوجيهات أخرى تأمر بتأديب الأسرة بأدب الاسلام، فالطفل يعود على آداب السلوك مبكراً، فيؤمر بالاستئذان في الدخول على الآخرين، والكبار أحرى بالاستئذان على أقاربهم حتى داخل بيته حتي يستأذن الرجل في الدخول على أمه في بيته ليخدمها.[1]

وقد وضعت ضوابط للعلاقات الاجتماعية كما في حقوق الطريق من غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[2] وقد أكدت التوجيهات على احترام الانسان وعلى التواصل بين الناس بتعميق التعارف «إذا آخى الرجل الرجل، فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو فإنه أوصل للمودة»[3] والحث على بذل النصيحة ونفع الآخرين بالمال والرأي «من كان معه فضل ظاهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد الخدري - راوي الحديث- فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا انه « لا حق لأحد منا في فضل ».[4]

فلا غرابة إذا لم نجد في ذلك المجتمع أثراً لظاهرة الاغتراب او الاحساس بالضياع والتمزق والعبث أو المعاناة النفسية، فقد عاش انسان ذلك المجتمع في رحاب واسعة ورؤى عريضة تقبس من علم الله ونوره ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾[5] وكيف يحس الانسان بالاغتراب في مجتمع يعيش تحت شعار «لا تدخلون الجنة حتي تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتي تحابوا ... أفشوا السلام بينكم»[6] ويعمل بتوجيه ملزم «أمرنا رسول الله (ﷺ) بسبع، بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وافشاء السلام، وابرار المقسم»[7] وكلها توجيهات وآداب توثق العلاقات بين الناس، وتقوي المعنويات العامة في المجتمع.

كانوا إذا التقوا تصافحوا مع بشاشة الوجه، واذا جلسوا فسحوا لبعضهم، يصلون

---

(١) أبو داود: سنن ٥/ ٣٧٤ حديث رقم ٥١٨٦.

(٢ البخاري: صحيح (فتح ٥ / ١١٢) حديث رقم ٢٤٦٥.

(٣) الترمذي: سنن ٤ / ٥٩٩ حديث رقم ٢٣٩٢.

(٤) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٥٤ حديث رقم ١٧٢٨.

(٥) سورة النور: ٤٠.

(٦) صحيح مسلم ١/ ٧٤ حديث رقم ٥٤.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (فتح الباري ١١ / ١٨ حديث رقم ٦٢٣٥).

الجيران والأرحام، ويبتعدون عن عوامل الشقاق والتقاطع والتدابر، وهو سمت يحتاجه المجتمع البشري في كل زمان ومكان.

«كان أبو بكر رضي الله عنه يحلب للحي أغنامهم، فلما استخلف قالت جارية منهم: الآن لا يحلبها. فقال أبو بكر: بلى واني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله». [1]

«وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقي لهن الماء بالليل». [2] وكان التأكيد على صلة الأرحام قوياً يهدف الى بناء الوحدات الاجتماعية الصغيرة على أساس من التكافل والتعاطف والحب، مما يجعل الأسرة والعشيرة مترابطة مرصوصة، ونظراً لأن الاسلام حرم العصبية القبلية وغيرها من العصبيات، ودعا الى التناصر في الحق، فإن الأسر والعشائر كانت متكافلة يسعى أفرادها الى سد الثغرات والخلل، بإغاثة اللهفان وإطعام الجوعان واكساء العريان، فكان أبناء العشيرة يتضامنون في دفع الديات. كما يتضامن الجيران على مصاعب الحياة «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3] ويتضمن أبناء القرية الواحدة «ايما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤٌ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله» [4]. وقد أدى توثيق عرى التعاون والأخذ بمبدأ التكافل الاجتماعي داخل الوحدات الاجتماعية الصغيرة الى دعم التكافل العام على صعيد المجتمع.

وقد سجل القرآن مآثرة الأنصار العظيمة عندما آووا المهاجرين حتى أرادوا مقاسمتهم نخلهم، وهو مصدر معيشتهم، لكن الرسول (ﷺ) طلب من الأنصار أن يقوموا بادارة بساتين النخيل، ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين في الثمر. [5] من هنا استحقوا الوصف القرآني ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾. [6]

ولا نعرف إذا كانت الشركة في التمر محددة بنظام كالمناصفة، أو المقصود قيام الأنصار بإعالة المهاجرين في تلك المرحلة.

---

(١) على الطنطاوي: أبو بكر الصديق ١٨٦.

(٢) انظر بعض أخباره في صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٥١٠) خبره مع بنت خفاف من ايماء الغفاري

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١٠/ ٤٤١ حديث رقم ٦٠١٤).

(٤) المنذري: الترغيب والترهيب ٢/ ٥٨٢ وقال: في هذا المتن غرابة وبعض أسانيده جيد. وانظر التلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ١٣.
وقال العراقي: «له شواهد تدل على صحته» (اللآلىء المصنوعة للسيوطي ١/ ١٤٧).

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٣٩.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٢٩.

ويبدو أن الرسول (ﷺ) لم يشأ أن يشغل المهاجرين بالزراعة فهو يحتاجهم لمهام الدعوة والجهاد، كما أن المهاجرين (لا يعرفون العمـل) كما عبر الرسول (ﷺ) مما يؤدي إلى خفض الانتاج الزراعي الذي تحتاجه المدينة.

كما وهبت الأنصار لرسـول الله (ﷺ) كل فضل في خططها، وقالوا لـه: إن شئت فخذ منا منـازلنا، فقال لهم خيراً، وابتني لأصحـابه أراضٍ وهبتها لهم الأنصـار وأراضٍ ليست ملكاً لأحد.[1]

وقـد أثرت هـذه المعـاملـة الكريمـة في نفـوس المهاجـريـن، فلهجـت ألسنتهم بكـرم الأنصار. عـن أنس قال: قـال المهاجـرون: يارسول الله مـا رأينا مثل قـوم قدمنـا عليهم أحسن مواسـاة في قليل ولا أحسن بذلاً من كثير، لقـد كفونا المؤونة وأشركـونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كلـه، قال: «لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم».[2] وكان التاريخ يسجل للأنصار مأثرة إثر مأثرة.

---

(١) البغدادي: أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠.

(٢) الترمذي: سنن ٤/ ٦٥٣ حديث رقم ٢٤٨٧ وقال: صحيح حسن غريب.

* نظـــــام المؤاخـــــاة :

ورغم بـذل الأنصار وكـرمهم فـإن الحاجة إلى إيجاد نظـام يكفل للمهـاجريـن المعيشة الكريمة ظلت قائمة، خاصة وأن أنفة المهاجرين ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على الأنصـار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة وذلك في السنة الأولى للهجرة بعد بناء المسجد أو خلاله، وأعلن النظام في دار أنس بن مالك وشمل خمسة وأربعين رجلاً من المهاجرين ومثلهم من الأنصـار، وترتبت على النظام حقوق خاصة بين المتآخين كـالمواساة والتـوارث، مما يـرقي بـالعلاقـات بينهم إلى مستـوى أعمق مـن أخوة النسب. وقد طابت نفوس الأنصار بما سيبذلونـه لإخوانهم المهاجرين من عون، وتصور بعض الروايات عمق التزامهم بنظام المؤاخـاة وتفانيهم في تنفيذه، ومن الصور الفريدة في تاريخ البشر مـا حدث بين سعد بن الربيـع «الأنصاري» وعبدالرحمن بن عـوف «المهاجر» حيث قـال له سعد: إن لي مـالاً فهي بيني وبينـك شطران، ولي امـرأتان فانظـر أيهما أحب اليك فأنا أطلقها فـإذا حلّتَ فتزوجها. قال عبدالرحمن : بارك الله لـك في أهلك ومالك، دلوني على السوق. فلم يرجع حتى رجـع بسمن وأقط قد أفضله. قال: ورأى رسول الله (ﷺ) عليّ، أثر صفرة فقال: مهيم؟ فقلت: تـزوجت امرأة من الأنصار، فقال: أولم ولو بشاة [(١)] . وليس موقف ابن عوف في أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه بأقل روعة من إيثار ابن الربيع.

ولا شـك أن التـوارث بين المتآخين كـان لمعـالجة ظـروف استثنـائيـة مرت بها الـدولـة الناشئة، فلما ألف المهاجـرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيهـا، وأصابوا من غنائم بـدر، رجع التـوارث الى وضعه الطبيعـي المنسجم مـع الفطرة البشريـة على أساس صلـة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخيَن بنص القرآن **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتـــاب الله﴾**[(٢)] «وأما المؤاخـاة في الإسلام والمحالفة على طـاعة الله والتناصر في الـدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فباقٍ لم ينُسَخ»[(٣)] وهذا يفسر استمرار عقد المؤاخاة حتى نهاية عصر السيرة. [(٤)]

---

(١) النسـائي : سـنن ٦/ ١٣٧ .

(٢) سـورة الأنفـال : ٧٥ .

(٣) صحيـح مسـلم ٤/ ١٩٦٠ الحاشـية .

(٤) أكرم العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة (٧ - ٨٠) .

إن التأكيد على الحب والتآلف والتعاون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على التكافل الاجتماعي وعلى بناء الأسرة، والتربية الإيمانية لذلك الجيل لم يمنع من تحصين المجتمع والحفاظ على أمنه الداخلي بالتشريعات، وكانت عقوبات القتل العمد والزنا والسرقة وشرب الخمر شديدة تستهدف الردع، لكن الحدود المطبقة فعلاً لم تتناول بأنواعها جميعاً إلا أفراداً لا يتجاوزون أصابع اليد ... كما حدث مع ماعز والغامدية في إقامة حد الزنا عليهما ...

إن إقرار العدل وتحريم الظلم كفيل بحلول الأمن في المجتمع مما يحقق الرخاء والسعادة للإنسان.

وتحريم العدوان على النفس البريئة بالقتل نص عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم**﴾[1] قال سعيد بن جبير: اختلف أهل الكوفة في هذه الآية. فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: «لقد أنزلت آخر ما أنزل ثم ما نسخها شيء[2] وذلك لأن جريمة القتل من أخطر الجرائم على المجتمع، وإزهاق الروح البريئة عدوان ليس على صاحبها فحسب بل على المجتمع كله في قوله تعالى: ﴿**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾[3]، ومن أجل الحفاظ على حق الحياة للأفراد والجماعات شرع الله تعالى القصاص لذلك قال تعالى: ﴿**ولكم في الحياة قصاص ياأولى الألباب لعلكم تتقون**﴾ [4] . وقد أدى تطبيق الحدود الإسلامية في القرون الأولى إلى تحقيق الأمن وتقليص الجريمة، فالعقوبة الرادعة والتوجيه الراشد تعاوناعلى تحصين المجتمع من الجرائم، بإزالة البواعث على الجريمة وسيادة الشريعة وتطبيق الحدود، وتوجيه المجتمع نحو عبادة الله وطاعته، وإقرار التكافل الاجتماعي بين الناس، والحث على العمل وطلب الرزق الحلال، والحرص على نظافة العلاقات الاجتماعية بالحث على الزواج وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحقيق تكافؤ الفرص في السعي لطلب الرزق أو تحقيق «الذات» وما تصبو إليه من مطامع مشروعة، وضمان الحريات العامة التي تحقق كرامة الإنسان ورفعته، وضمان حدود الاكتفاء الدنيا لكل إنسان في المأكل والملبس والسكن والتنقل، فإذا حقق المجتمع

(١) سورة النساء: ٩٣.
(٢) رواه مسلم: الصحيح ٤/ ٢٣١٧ حديث رقم ٣٠٢٣.
(٣) سورة المائدة: ٣٢.
(٤) سورة البقرة: ١٧٩.

الإسلامي ذلك فإنـه يقضى على دوافع الجريمة إلا بالنسبة للمنحرفين الشاذيـن فإنه قد لا يفلح معهـم التوجيه ولا الضمان والتطمين الإجتماعـي والاقتصادي، فهؤلاء لا تـردعهم إلا العقوبـة اللائقة والقصاص المنـاسب ﴿وما الله يـريد ظلماً للعـالمين﴾.[1] ولقــد أدى تخفيف العقوبـات لجرائم القتل والاغتصاب والسرقة في القوانين الوضعيـة إلى شيوع هذه الجرائم وكثرتها في مجتمع الحضارة الغربية، حتى لا تكـاد تمر ساعة إلا وتقع جريمة قتل أو أكثر، فضـلاً عن حوادث الاغتصاب والسرقـة مما أفقد هذه المجتمعـات الأمان وأدى إلى مطالبـة الناس بتشـديد العقـوبة على المجرمين لـردعهم عـن ارتكاب الجرائم بعـد أن كان البعض من مثقفيهم يعيب على الإسلام قتل القاتل وقطع يد السارق ورجم الزاني وينسب إليه الـوحشية والقسـوة. ولكن الـوقائع اليوميـة وأحداث المجتمعـات الغربيـة دلت على سلامـة الاتجاه نحو الـردع للجريمـة والمجرمين بعـد تحقيق الضمانـات الاجتماعية العـادلة و﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾.[2]

---

(١) ســـورة غافــــر : ٣١.

(٢) ســـورة يونـــس : ٤٤.

* مجتمـــــع عقـــــدي : [1]

ولا شـك أن الـروابط التـي تجمـع بين النـاس مختلفـة، وهـم يجتمعون بشكـل قبـائل وشعوب وأوطان وقوميـات، وقد يجتمع أبناء القوميات المختلفـة تحت لواء واحد بسبب الدين أو المصالح المشتركة. وتعتبر آصرة القربي أو الـدم والانتماء إلى أصل عرقي من أقدم الروابـط التي كونت المجتمعـات البشرية، ويوم أن ظهـر الاسلام كانت تجمعـات الناس تظهر بشكـل قبائل كما في جـزيرة العرب وأمـاكن أخرى، وقـوميات كما في بـلاد فارس، ومجتمعات دينيـة كما في الامبراطوريـة البيزنطية. وقـد جعل الإسـلام رابطة العقيـدة هي الأسـاس الأول في ارتباط النـاس وتآلفهـم وإن أقرّ بعـض الأواصر الأخرى إذا انضـوت تحت هذا الأصل مثل الأرحام التي حـث الإسلام على وصلها، ورتب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والإرث ومثل صلـة الجوار وما يترتب عليها من حقوق الجار ومثل الصلـة بين أفراد العشيرة وما يترتـب عليها من تضامـن في الديات ومثـل الصلة بين أبناء المدينـة وجعلهم أولى مـن سواهـم بزكاة أغنيـائهم ... لكـن هذه الصـلات ينبغي أن تنضـوي تحت آصرة العقيـدة فـإذا خـالفتهـا وأضرت بها لم يبـق لها أي اعتبـار، فـأسـاس الارتباط في الإسلام هو العقيدة التي قـد تقتضي مصلحتها التفريق بين المرء وأبيه أو ابنه أو زوجته أو عشيرتـه. . وهكذا قاتـل أبو عبيدة رضي الله عنـه أباه - وهو يمجـد الأصنام - فقتله عنـدما التقى بـه في معركة بدر الكبرى، ورأى أبـو حذيفة رضي الله عنـه أباه المشرك وهو يسحب ليرمي في القليب ببدر دون أن ينكر قلبه ذلك. [2]

قال ابـن إسحق[3] : وحدثني ابن وهب أخـو بني عبد الدار أن رسول الله (ﷺ) حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بهم خيراً، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعـب بن عمير لأبيه وأمه في الأسرى. قال أبو عزيـز : مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يـأسرني فقال: أشدد يديك به فإن أمه ذات متـاع لعلها تفديه منك. . قـال ابن هشام: وكان أبـو عزيز هذا صـاحب لواء المشركين ببدر بعـد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهـو الذي أسره - ما قال، قال له أبـو عزيز: ياأخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب إنه أخي دونك.

---

(١) أكرم العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة ص ٨١ - ٨٨.

(٢) سـيرة ابـن هشـام ٢ / ٧٥.

(٣) انظـر ابـن كثيـر : البدايـة والنهايـة ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

روي الترمـــذي[1] بإسناد قـال عنه حسن صحيح وهـو : حدثنا ابن أبي عمـر أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع جابر بـن عبدالله يقول كنا في غزاة - قال سفيان يرون انها غزوة بني المصطلق - فكسـع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصـار ... وفيه فسمع ذلك عبدالله بن أبي بـن سلول فقال : أو قد فعلوهـا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخـرجن الأعز منها الأذل، وقال غير عمـرو : فقال له ابنه عبـدالله بن عبدالله : «والله لا تنقلب حتـي تقر أنك الذليل ورسول الله (ﷺ) العـزيز ففعل» . وقد كان عبدالله بن عبدالله بـن أبي باراً بأبيه هياباً له[2] لكن مصلحة العقيدة هي المعتبرة عنده أولاً فلما رأى أباه يؤذي المسلمين عرض على النبى (ﷺ) أن يقتله ويأتيه برأسه .[3]

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فيما قصه عن نوح عليه السلام وابنه ﴿**ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يانوح إنه ليس من أهلـك إنه عمـل غير صالـح فـلا تسألني مـا ليس لـك به علـم إني أعظـك أن تكون مـن الجاهلين**﴾[4] وهكذا بين الحق سبحانه أن ابن نوح وإن كان مـن أهله باعتبار القرابة لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله ولم يتبع نـوحاً نبى الله، وصرح القرآن الكريم بعلة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله : ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾ فإذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبتّ، عندمـا تصطدم بالعقيدة فالأحـرى أن تنبتّ صلات الدم والعـرق والوطن واللون إذا اصطدمت بمصلحة العقيدة .

وقـد حصر الإسلام الأخـوة والموالاة بين المؤمنين فقـط قال تعـالى : ﴿**إنما المؤمنـــون إخوة**﴾[5] وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصاري حتي لو كانوا آباءهم وإخوانهم أو أبناءهم ووصف مـن يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم مما يدل على ان موالاة المؤمنين للكافرين من أعظـم الذنوب قال تعالى : ﴿**ياأيها الذيـن آمنوا لا تتخذوا آباءكـم وإخوانكـم أولياء إن استحبـوا الكفر على الإيمان ومـن يتولهم منكـم فأولئـك هم الظالمون**﴾ .[6]

---

(١) الترمـذي : سـنن ٥ / ٩٠ كتـاب التفسيـر .
(٢) مسـند الحميـدي ٢ / ٥٢٠ .
(٣) الهيثـمي : مجمـع الزوائـد ٩/ ٣١٨ .
(٤) سـورة هـود : آيـة ٤٥ ، ٤٦ .
(٥) سـورة الحجـرات : ١٠ .
(٦) سـورة التوبـة : ٢٣ .

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم وعلاقاته الدنيوية كلها في كفة ووضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل العقيدة في كفة أخرى، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غلبّوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة قال تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترضتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتي يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.[1] وقد نزلت هذه الآيات من سورة التوبة في الحض على الهجرة إلى المدينة المنورة للدفاع عن الدولة الإسلامية التي نشأت فيها. . وقد نجح الصحابة الكرام في امتحان العقيدة... ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التي يحبونها وهاجروا إلى الله ورسوله والجهاد في سبيله.

وخلاصة القول ان المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقيديا، يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاها إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين.

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

* مجتمع محبة لا يعترف بالصراع الطبقي :

وقد أقام الإسلام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل، كما في الحدث الشريف «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] فالتواد والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم حاكمهم ومحكومهم.

وقد تكفلت تعاليم الاسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع، ففي الحديث النبوي «لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2] فيعيش المؤمنون بعيداً عن الأثرة والاستغلال وهم يتعاونون في مواجهة أعباء الحياة «فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».[3] «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».[4]

وعلاقات المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل فلا يستعلي غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولا قوى على ضعيف «بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».[5] رواه الإمام مسلم.

وقد تفتر العلاقة بين المسلم وأخيه أو تنقطع ساعة غضب لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليال «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».[6]

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة «تهادوا تحابوا»[7] ويضع الغني أمواله في خدمة المجتمع وسد الثغرات التي تظهر في بنائه الاقتصادي بسبب التفاوت في توزيع الثروة فيخرج زكاة أمواله فريضة من الله ويواسي المحتاجين بأموالهم حتى أنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته إذ تعود عليهم بالخير والمواساة.

أخرج الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري المدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله (ﷺ) يدخلها ويشر ب من ماء فيها طيب، فلما نزلت **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**[8] قام أبو طلحة فقال: يارسول الله: إن الله يقول: **﴿لن تنالوا البر حتى**

(١) صحيح مسلم، البر والصلة ٦٦.
(٢) صحيح البخاري ١ / ١٠ وضمير مسلم الايمان رقم ٧١.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٦٨، وصحيح مسلم البر والصلة ٥٨.
(٤) النـواوي: الاذكـار: ١٣٥.
(٥) صحيح مسلم، البر والصلة ٣٢.
(٦) صحيح البخاري ٨/ ٢٣ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة، باب ٨ رقم ٢٣.
(٧ مالـك: الموطـأ ٩٠٨.
(٨) سـورة آل عـمران آيـة ٩٢.

تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله (ﷺ) : ذلك مال رايح[1] ذلك مال رايح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.[2]

وروي البخاري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رجل رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله (ﷺ) ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يارسول الله، فذهب إلي أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله (ﷺ) لا تدّخريه شيئاً فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فاطفئى السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله (ﷺ) فقال: لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة فأنزل الله عز وجل **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**.[3]

والإيثار هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهو عكس الأثرة التي هي استئثار صاحب الشيء عليك وحوزه للشيء دونك، والايثار أعلى مراتب الكرم، ولا يقوى عليه إلا أهل العزائم من الناس الذين صقلتهم العقيدة وربتهم تعاليم الإسلام، وقد ظهرت هذه الخلال الكريمة والصفات النجيبة في أقوى صورها وأعمق معانيها في جيل الصحابة الكرام، ذلك الجيل الذي تمثل العقيدة والتعاليم الاسلامية وتشرب معانيها. فكان بحق جيل المثالية الواقعية، فكان أحدهم قرآن يمشي على رجلين، بل هم كذلك، ما إن تنزل الآية تحث على المعروف وتندب إلى الغير حتى يسارعوا للعمل بمقتضاها.

ومثل هذا كثير في سير المسلمين من سلفنا الصالح لذلك لم تظهر الروح الطبقية ولم يحدث الصراع الطبقي ... ولم يتكتل الناس وفق مصالحهم الاقتصادية لحرب من فوقهم أو تحتهم ... إن المجتمع الإسلامي لم يشهد صراع الطبقات ولا يعرف استعلاء غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولم يعترف ابتداء باختلاف البشر تبعاً لألوانهم وأعراقهم أو دمائهم، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ... والمجتمع

---

(١) أي أن أجرها يروح ويغدو عليه (فتح الباري ٣/ ٣٢٦).

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٣١ كتاب التفسير.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ٦٣١).

الإسلامي مفتوح أمام الجميع ففرص الارتقاء والكسب متكافئة أمام أفراده، والعلاقات الاجتماعية متكافئة أيضاً فلم يحدث أن منع فقير من الزواج بغنية أو حجب ضعيف من الترقي إلى أرفع مناصب الدولة وأعلى مراكز القيادة والتوجيه في المجتمع، فليست هناك طبقية يصطدم رقي الفرد بسقوفها ولو قدر للمجتمع الإسلامي أن يستمر في تقدمه العلمي والحضاري ويمسك بزمام البشرية اليوم لظهرت مزايا الإسلام في بناء مجتمع متراص على أساس الحب والتكافل وليس الحقد والصراع الذي ليس وراءه إلا الدمار.

ولم يكن ذلك المجتمع حلماً من أحلام الطوبائيين ولا رؤى للحكماء المتفلسفين، ولكنه واقع عاشه النبي المعلم وأصحابه منذ أن تفاعل الوحي الإلهي مع الفطرة الإنسانية على يد محمد بن عبدالله قبل أربعة عشر قرناً، وإذ بالقبائل المتصارعة على الكلأ والماء، والمتعصبة للنسب والأهواء، والمنغلقة على بعضها «إذا بها تتحول من الولاء الفردي والقبلي إلى الولاء لله والرسول وتنتمي إلى «أمة الإسلام غير آبهة لكل روابط الجاهلية وعلاقاتها. حتى إذا حاول الأعداء من اليهود أو المنافقون إثارة العصبيات القديمة والتذكير بمعارك الجاهلية وأيام العرب التي استغرقت العرب في جاهليتهم. لم يلق الأعداء سوى الآذان الصماء والتصميم على الوحدة الايمانية الجديدة. كانت الأمة الوليد يقظة لكل محاولات التمزيق فلم تفلح دسائس يهود لإعادة النزاع بين الأوس والخزرج ولا محاولات عبدالله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين لشق الصدع بين الأنصار والمهاجرين. غمضت الأمة رافعة هاماتها شامخة بإيمانها معتزة بوحدتها واسلامها، فقد وضعت العقيدة فوق كل اعتبار محققة معنى الإيمان الصحيح، وكانت العقيدة تدفع إلى العمل الصالح، فالصلوات الخمس والذكر الدائم لله تعالي وبذل النصيحة والإخلاص في الحب والإتقان في العمل والتعاون على مطالب الحياة، كل ذلك كان يتم تحت شعار قوله تعالى: ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم**﴾.[1] كان العمل الصالح يتسع نطاقه كل يوم لأن من استوى يوماه فهو مغبون، وكان الذكر والشكر بالثناء على الله المنعم مرة وبالبذل والإنفاق فيما يحبه الله ويرضاه مرة أخرى ... ورسول الله (ﷺ) يربي أتباعه على هذه المعاني ويجعلهم يعيشون على الأرض وقلوبهم موصولة بالله متطلعة إلى ما عنده من ﴿**جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾[2] و«فيها مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».[3]

---

(١) سورة ابراهيم: ٧. (٢) سورة آل عمران: ١٣٣.

(٣) البخاري: فتح الباري ١٣/ ٤٦٥ حديث رقم ٨٤٩٨ ومسلم: الصحيح ٤/ ٢١٧٤ حديث رقم ٢٨٢٤.

وإذا كان هذا هو موقف أغنياء المسلمين في المجتمع المدني فما هو موقف ضعفائهم وفقرائهم؟

لقد وقف الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد، فالعقيدة الإسلامية منعت ظهور الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي وآخت بين الأغنياء والفقراء ووحدت الصف الداخلي لمواجهة متطلبات الجهاد وهذه صورة من المجتمع المدني توضح كيف عاشت مجموعة من أفقر المسلمين في عصر السيرة.

قال تعالى: **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾**.[1] ذكر ابن سعد في طبقاته [2] بإسناده إلى محمد بن كعب القرظي أن هذه الآية نزلت في أهل الصفة وذكر الطبري[3] في تفسير ه بأسانيده عن مجاهد والسدي أنها نزلت في فقراء المهاجرين.

وقد أبطل الربا في مجتمع المدينة المنورة بنص القرآن وكانت يهود تمارسه بنطاق واسع وكذلك بعض أغنياء المدينة، كما منع الاحتكار وروقبت الأسواق لمنع الغش في البضائع، وقد تطور ذلك إلى نظام الحسبة المشهور في التاريخ الإسلامي.

كما حوربت مظاهر الترف والإسراف وإتلاف الثروة أو منعها من التداول عن طريق الكنز مع عدم إخراج زكاتها، واتضح للجميع أن في المال الذي يملكه الأغنياء حقاً للمجتمع فمنع السفهاء من التلاعب بأموالهم، ولم يربط بين الحصول على المال وبين المكانة الاجتماعية للمسلم إذ «الغنى غنى النفس» [4] . كما حرم القمار وبيوع الغرر حفظاً لأموال الناس وحقوقهم وحددت قواعد الكسب الطيب ومجالات الانفاق الطيب، وكان أغنياء المسلمين يتصدقون بالأموال العظيمة لسد الخلل في المجتمع، وفي أعمال المروءات وتجهيز الجيوش، وكان عبدالرحمن بن عوف مثالاً للتاجر المسلم وهو يدعو عند طوافه بالبيت العتيق، «ربِّ قني شحَّ نفسي».

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣.

(٢) الطبقات الكبرى ١ / ٢٥٥.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٩١ (ط محمود محمد شاكر).

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١١/ ٢٧١) حدث رقم ٦٤٤٦.

* مجتمـــــع أميــــــن :

قال تعالى : ﴿وما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غـلّ يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ .(١)

الغلول هو أخذ شيء من الأموال العـامة دون معرفة الأمير الحاكم، والإسلام يحرص على عدالة التوزيع، وعلى إيصال الحقوق لأصحابها، والأموال العامة فيها حق للموطنين جميعاً، فما ينبغي لأحد منهم أن يأخذ شيئاً من هذه الأموال دون الباقين.

والآية الكريمـة تبين أن النبي (ﷺ) كان لا يَغُلّ لنفسه شيئـاً مع مقامه العظيـم وأمانته على الرسالة الإلهية، فما كان ليأخذ شيئاً من الغنيمة قبل قسمتها، وقد وردت قراءة أخرى ببناء الفعل (يَغُـلّ) للمجهول فيقرأ (وما كـان لنبي أن يُغَلّ) أي أن يخونه أصحـابه، وبهذا تكون الآية في نهي المسلمين عن خيانة الرسول (ﷺ) باقتطاع شيء من الأموال العامة دونه علمه. وعـن زيد بن خـالد الجهني : «أن رجلاً مـن أصحاب النبي (ﷺ) تـوفي يوم خيبر فذكـروا ذلك لـرسول الله (ﷺ)، فقالـوا : صلوا على صـاحبكم، فتغيرت وجـوه الناس لذلك فقال : ان صاحبكم غلّ : في سبيل الله، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يســاوي درهمين»(٢) . فليتأمل المسلم كيف أن خـرزاً لا يساوي درهمين اقتطعه مسلم من الأموال العامة أدى إلى امتناع الرسول (ﷺ) من الصلاة عليه، فكيف بمن يقتطع الألوف والملايين من الأموال العـامة يأكل منها ويشرب ويكتسي ويبني ويبـذخ دون مبالاة بالحرام الذي يرتع فيه.

وقد وضـع النبي (ﷺ) لأتباعـه مصير من يسرق من المال العـام كالغنيمة قبـل قسمتها وأن مآله إلى النار فروى أبو هريرة (رضي الله عنـه) قال : «خرجنا مع رسول الله (ﷺ) عام خيبر ... وقد أهـدي لرسـول الله (ﷺ) وقد أهدي لـرسول الله (ﷺ) عبـد أسود يقـال له مدعم ... فبينا مدعم يحطّ رحل رسـول الله (ﷺ) إذ جاءه سهم فقتله، فقال الناس، هنيئا لك الجنة، فقال النبي (ﷺ) والذي نفسي بيده أن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقـاسم لتشتعـل عليه نـارا» فلما سمعوا ذلـك جاء رجـل بشراك أو شراكين إلى رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) : «شراك من نار أو قال : شراكين من نار» .(٣)

---

(١) ســـورة آل عمـــران : ١٦٢ .

(٢) رواه أبو داود : السنن ٣/ ١٥٥ حديث رقم ٢٧١٠ .

(٣) رواه أبو داود : السنن ٣/ ١٥٥ حديث رقم ٢٧١١ .

وكانت عقوبة الغال من الأموال العامة أن يحرق متاعه كما في حديث عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه): عن النبي (ﷺ): «إذا وجدتم الرجل قد غلّ فأحرقوا متاعه واضربوه»(١)، وهذه العقوبة فيها زجر وردع لمن تسول له نفسه الأخذ من المال العام، وللحاكم أن يقرر عقوبة أخرى تحقق المصلحة العامة والحفاظ على المال العام.

وقد نهى الرسول (ﷺ) عن تأخير تسليم الغنائم عن الوقت المحدد لذلك واعتبره غلولاً، لأن تأخير تسليم المال العام قد يؤدي الى تعطيل منفعته عن الأمة واستفادة من بحوذته ذلك المال منه وحده ثم بعد ان يحقق هذه الفائدة يقوم بتسليمه معتقداً انه بذلك أبرأ ذمته، يدل على ذلك حديث عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: «كان رسول الله (ﷺ) إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فيخمسه ويقمسه، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال: يارسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة فقال: أسمعت بلالاء ينادي ثلاثاً؟ قال: نعم، قال: فما منعك من أن تجيء به؟ قال: يارسول الله فأعتذر [اليه]، فقال: «كن انت تجيء به يوم القيامة فلن اقبله عنك». (٢)

وقد جعل الإسلام عقوبة الغال أن يأتي بما غل يوم القيامة يحمله، عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله (ﷺ) رجلاً من الأسد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا لي، أهدي إليّ، قال: فقال رسول الله (ﷺ) على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي!! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدي إليه أم لا. والذي نفس محمد بيده! لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيام يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيعَر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه. ثم قال: اللهم هل بلغت؟» مرتين. (٣)

وقد يسعى الغالّ من المال العام إلى التفكير عن خطيئته ببناء المساجد والتصدق على الفقراء والمشاركة في الأعمال الخيرية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول»(٤) فينبغي إذاً التوبة بإعادة المال إلى الأمة فهو حق لها

---

(١) رواه أبو داود: السنن ٣/ ١٥٧ حديث رقم ٢٧١٣.
(٢) رواه أبو داود: السنن ٣/ ١٥٦ حديث رقم ٢٧١٢.
(٣) رواه مسلم: الصحيح ٤/ ١٤٦٣ حديث رقم ١٨٣٢.
(٤) رواه مسلم: الصحيح ١/ ٢٠٤ حديث رقم ٢٢٤.

والاقلاع عن هذه العادة واعتزام الاستقامة. فإن المال قوام الحياة، والأمة التي لا مال لها، أو لها مال يعبث به الغالون ويقتطع منه السارقون، لا تقوم لها قائمة في الأرض، وفقر بعض الأمم في هذه العصر جرّ إلى نكبتها بالاستعمار واذلالها للغير ماداموا يكسونها ويطعمونها.

ومن هنا حرص الاسلام على الثروة العامة، وكان رسول الله (ﷺ) يوصي عماله ويذكرهم بالمحافظة على أموال الأمة وعدم الغلول منها على الرغم مما كان عليه أولئك الولاة من الإيمان والأمانة والورع والاستقامة. عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: «بعثني رسول الله (ﷺ) إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فرددت، فقال: أتدري لم بعثت إليك؟ لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة، لهذا دعوتك، فأمض لذلك». (١)

ومن عقوبة الغالين يوم القيامة امتناع الرسول (ﷺ) من الشفاعة لهم، قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «قام فينا رسول الله (ﷺ) ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره ثم قال: لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يارسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يارسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك... لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يارسول الله: اغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت - يعني ذهباً أو فضة - فيقول: يارسول الله، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك». (٢)

وقد يستقل البعض الشيء القليل من المال العام فيقتطعه لنفسه دون حق مستخفاً به لقلة ثمنه، لكن الرسول (ﷺ) اعتبر المخيط غلولاً كما في حديث عدي بن عميرة الكندي قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». (٣) وقال (ﷺ)«من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكنز والدين والغلول». (٤)

---

(١) رواه الترمذي: الجامع ٣/ ٦٢١ حديث رقم ١٣٣٥.
(٢) رواه مسلم: الصحيح ٣/ ١٤٦١ حديث رقم ١٨٣١.
(٣) رواه مسلم: الصحيح ٣/ ١٤٦٥ حديث رقم ١٨٣٣.
(٤) رواه أحمد بن حنبل: المسند ٥/ ٢٨١.

وقد أثرت تعاليم القرآن والسنة هذه في صياغة الشخصية الإسلامية وخاصة في القرون الأولى المباركة، فإذا بالوعي الديني والخلقي يبلغ بالنفوس أعلى الدرجات، وإذا بالأقوال والأعمال تتطابق مع مطالب وتوجيهات الوحي ا لإلهي.

روى الطبري أنه «لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه، فدفعه الى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه: فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ قال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرِّظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس»[1] رحمه الله من قدوة عالية ونموذج شامخ بناه الإسلام.

---

(٤) الطبري: تاريخ ٤ / ١٩.

* مجتمـــع دســـتوري : [1]

وقد نظم الرسول (ﷺ) العلاقات بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود في دستور معلن واضح البنـود يهدف الى بيان التزامات جميع الأطراف داخـل المدينة، وتحديد الحقوق والـواجبات ومـن الحق أن يتضح أن القسم الخاص بـالعلاقـات بين المسلمين من المهاجـرين والأنصـار هو الثـابت وفـق مقاييـس المحدثين وبـالتالي فـإنه وحـده الصالـح للاستدلال الشرعي به ...

وأما القســم المتعلق بيهـود فإنـه لا يثبت حـديثياً، لكـن المؤرخين المسلمين أوردوه ولم يتعرض لنفيه أحد منهم، فلا مانع من الافـادة منه في الدراسة التاريخية دون الاستناد عليه في قضايا تتعلق بالعقيدة والشريعة.

لقد أوضحـت البنود المتعلقـة بالمهـاجرين والأنصـار وحدة الأمـة وتمايزهـا «إنهم أمة واحدة دون الناس» أمة يرتبط أفرادها برابطة العقيدة وليس الدم، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهـم وتتحد قبلتهم ووجهتهم، ولاؤهـم وليس للقبيلة، واحتكامهـم للشرع وليس للعرف وليس للعـرف، وهم يتمايزون بذلـك كله على بقية الناس، فهـذه الروابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهـم مـن اليهود والحلفاء في مجتمع المدينـة، ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمراً مقصوداً يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها، يتضح ذلك في تميزهـا بالقبلة واتجاههـا إلى الكعبة بعد أن اتجهـت ستة عشر أو سبعة عشر شهـراً إلى بيت المقـدس[2] وقد مضى النبي (ﷺ) يميز أتباعه عـن سواهم في أمور كثيرة ويوضح لهم أنه يقصد بـذلك مخالفـة اليهود، مـن ذلك: أن اليهـود لا يصلون بـالخف فأذن النبـي (ﷺ) لأصحابـه أن يصلوا بالخف، واليهـود لا تصبغ الشيـب فصبغ المسلمون شيـب رؤوسهم بالحنـاء والكتم، واليهود تصـوم عاشوراه والنبـي (ﷺ) يصومـوه أيضاً ثم اعتـزم أواخر حياته أن يصوم تـاسوعاه معه مخالفة لهم. ثم أن النبـي (ﷺ) وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميـز عليهم فقـال: «ومن تشبه بقـوم فهو منهم» وقـال: «لا تشبهوا بـاليهود» والأحاديـث في ذلك كثيرة وهـي تفيد معنى تميـز المسلمين واستعلائهـم على غيرهم، ولا ريب أن التشبه والمحاكاة للآخرين يتنافي مع الاعتزاز بالذات والاستعلاء على الكفار. [3]

---

(١) أكرم العمري: المجتمع المدني ١٠٧ - ١٣٦.

(٢) خليفة: التاريخ ٢٣ - ٢٤ وسيرة ابن هشام ١ / ٥٥٠.

(٣) يعطي ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم فكرة واضحة عن هذا المعنى.

ولكن هذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزاً بين المسلمين وغيرهم، فكيان الجماعة الاسلامية مفتوح وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه من يقبل(ايديولوجيته).

وقد ذكرت البنود من (٣) الى (١١) الكيانات العشائرية، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم، أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرهم، وذكر العشائر لا يعني اعتبارها الأساس الأول للارتباط بين الناس، ولا يعني الابقاء على العصبية القبلية والعشائرية فقد حرم الاسلام ذلك: «ليس منا من دعا الى عصبية» وانما للاستفادة منها في التكافل الاجتماعي، وجعل الاسلام العقيدة هي الأصل الأول الذي يربط بين أتباعه لكنه اعترف بارتباطات أخرى تندرج تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع وتساهم في بناء التكافل الاجتماعي بين أبنائه، مثل الارتباطات الخاصة بين: أفراد الأسرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات على الآباء والأبناء والأمهات وأفراد العشيرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات كالتضامن في دفع الديات وفكاك الأسرى وإعانة المحتاج منهم، وأفراد المحلة الواحدة: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وأفراد القرية الواحدة: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى»، وأبناء المدينة الواحدة فلا تخرج زكاة أموالهم من مدينتهم إلا بعد استيفاء حاجات أبنائها. . وهكذا رتب الاسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة القيام بمهام التكافل الاجتماعي وبذلك سد ثغرات كبيرة، وتأتي الدولة في نهاية المطاف فتسد ما تبقى من ثغرات مما عجز عنه الأفراد... ولا شك أن ذلك يرفع عبئاً كبيراً عن كاهل الدولة تنوء به الدول الحديثة.

وهكذا فإن إقرار الروابط العشائرية قصد به الاستفادة منها في التكافل الاجتماعي «ولكن لا تناصر في الظلم ولا عصبية وبذلك حوّل الإسلام وجهة الروابط القبلية واستفاد منها بتكييفها وفق أهدافه العليا.

ان التكافل الاجتماعي يحتم على العشيرة أن تعين أفرادها ومن ذلك إذا قتل فرد منها أحداً خطأ، فإنها تدفع دية القتل بالتضامن بين أفرادها، وقد كان ذلك متعارفاً عليه في الجاهلية فأقرته الوثيقة لما فيه من التعاون: «على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى» أي على شأنهم وعاداتهم من أحكام الديات.[1] وكذلك تعين العشيرة الأسرى من أفرادها

(١) أبو عبيد: الأموال ص ٢٩٤. وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٧٩. وانظر شرح الزرقاني المالكي على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨. وابن منظور: لسان العرب مادة (عقل).

بمفاداتهم بالمال: «وهم يفدون عانيهم - أي الأسير - بالمعروف». [1]

كما أكدت الوثيقة على المسؤولية الجماعية، واعتبرت سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة. أن أهمية ذلك كبيرة لأن النبى (ﷺ) لم يشكل قوة منظمة كالشرطة لتعقب الجناة ومعاقبتهم.

ونظراً لكون الحدود على الجرائم مصدرها الله تعالى لذلك فإن السعي إلى تطبيقها واجب ديني على المؤمنين، وهذا يكسب الأحكام قدسية ويعطيها قوة كبيرة، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحديها والخروج عليها كما يحدث في ظل القوانين الوضعية. ان اهتمام الوثيقة بإبراز دور المؤمنين يتضح من البند رقم (١٣) والبند رقم (٢١) حيث ينص البند رقم (١٣): «وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم او اثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم» فهي تعتمد على المؤمنين في الأخذ على يد البغاة والمعتدين والمفسدين والمرتشين، ومعني (دسيعة ظلم) أي طلب عطية من دون حق. [2] وتخصيص المتقين بتحمل المسؤولية لأنهم أحرص من سواهم على تنفيذ الشريعة لكمال إيمانهم ولأن من اتصف بأصل الايمان قد يرتكب الحرام فيبغى ويخالف الحدود فيمنع من ذلك. [3]

أما البند رقم (٢١) فنصه: «ومن اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به» أي أن من قتل بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به ويقتل إلا إذا اختار أهل القتيل أخذ الدية بدل القصاص أو وقع منهم العفو» [4]، وسواء اختار أهله القتل أو الدية فإن المؤمنين كافة - بضمنهم أهل القاتل - يتعاونون في تطبيق الحكم عليه وعدم حمايته مهما بلغت درجة قرابته لهم إذ: «لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل». والمحدث كل من أتى حداً من حدود الله عز وجل، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه، ومن آواه فإن الله يلعنه ويغضب عليه ولا

---

(١) أبو عبيد: الأموال ص ٢٩٤. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨.

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١١٧. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٤/ ١٦٨ وابن منظور: لسان العرب مادة (دسع).

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨.

(٤) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٢٤. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨ - ١٦٩ والشوكاني: نيل الأوطار ٧/ ٦١.

يقبل منه التوبة عن فعلته في نصرة المجرمين ولا يقبل منه فدية لذلك.[١]

ويقتضي التكافي الاجتماعي بين المؤمنين أن يعينوا المفرح منهم (أي الذي أثقله الدين).[٢] إن كان أسيراً بفدائه وإن كان جنى جناية عن خطأ دفعوا الدية عنه كما ينص البند رقم (١٢) وقد ذهب ابن سعد إلى أن المفرح هو من يكون في القوم لا يعرف له مولى.[٣] ومن الواضح أن صلة الولاء يترتب عليها العون والمساعدة في الديات وغيرها. فمن لم يكن له عشيرة ينتسب اليها صليبة أو ولاء فإن المؤمنين جميعاً أولياؤه وعليهم مساعدته، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال لأنه لا عاقلة له.[٤]

لقد أقر البند (١٢ ب) فكرة الحلف لكنه لم يسمح بالتجاوز على حقوق الولاء التي للسيد على المعتقين من مواليه، فلا يجوز لأحد محالفتهم دون إذن سيدهم، ويتضح من حديث شريف أن الإسلام إنما أقر استمرار الأحلاف القديمة لكنه منع استحداث أحلاف جديدة ونص الحديث: «لما دخل رسول الله (ﷺ) مكة عام الفتح قام في الناس خطيباً فقال: يأيها الناس إنه ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ولا حلف في الإسلام».[٥]

ويبرز في البند رقم (١٤) استعلاء المؤمنين على الكافرين: «لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن» فهذا دليل على أن دم الكافر لا يكافيء دم المؤمن، وتأكيد على الترابط الوثيق بين المؤمنين وموالاتهم لبعضهم، وقطع صلات الود والولاء القديمة مع الكفار.

ويقرر البند رقم (١٧): «إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم» فمسؤولية اعلان الحرب والسلم لا يقرره الأفراد بل النبي (ﷺ)، فإذا أعلن الحرب فإن سائر المؤمنين يصبحون في حالة حرب مع الخصم ولا يمكن لفرد مهادنته لأنه مرتبط السياسة العامة للمؤمنين.[٦] كما أن عبء الحرب

---

(١) أبو عبيد: الأموال ص ٢٩٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٢. وأبو عبيد: الأموال ص ٢٩٤. وابن الأثير: النهاية ٣/ ٤٢٤. وابن منظور: لسان العرب مادة (فرح).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/ ٤٨٦.

(٤) ابن منظور: لسان العرب مادة (فرح).

(٥) رواه الترمذي وقال (هذا حيث حسن صحيح) انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ٧/ ٨٣. ورواه أحمد: المسند ١/ ١٨٠ و ٢/ ٢١٥.

(٦) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨.

لا يقع على عشيرة دون أخرى بل أن الجهاد فرض على جميع المؤمنين وهم يتناوبون الخروج في السرايا والغزوات[1] «وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً» بند رقم (١٨).

وقد أقر البند رقـم (١٥) مبدأ الجوار الذي كان معروفاً قبل الإسـلام، وجعل من حق كـل مسلم أن يجير، وأن لا يخفـر جـواره، كما حصر الموالاة بين المؤمنين، والموالاة تقتضي المحبة والنصرة فلا يجوز لمؤمن أن يوالي كافراً: **﴿والمؤمنون بعضهم أولياء بعض﴾ ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهـم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ...﴾**[2]. **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ...﴾**.[3]

لكـن البند رقـم (٢٠ ب) يمنـع من بقـي على الشرك مـن الأوس والخزرج من إجـارة قـريش وتجارتها أو الـوقوف أمـام تصدي المسلمين لها، فقـد كان النبـي (ﷺ) مصمماً على المضي في سياسة التعرض لتجارة قـريش، ولا شك أن المسلمين من الأوس والخزرج وهم الأكثرية الغالبة في عشائرهم هم الـذين سيتكفلون بتطبيق هذه المادة بالنسبة للمشركين من أفراد عشـائرهم. إن هذا الالتزام سبـق أن أخذ تعهد اليهـود به أيضاً عند مـوادعتهم وان تكرر النص في الوثيقة يؤيد اعتبار الوثيقة تأليفاً بين وثيقتين منفصلتين كما سبق.

ولا مانـع من أن ينـص في وثيقة الحلـف بين المهاجـرين والأنصـار على معاملـة اليهود المحالفين للمسلمين المعروف والعدل وعدم التحريض عليهم وإيذائهم، رغم عدم وجود اليهود عنـد صياغـة النصوص، بـل إن ذلك يعبر عن ثبـات القيم الأخـلاقية في السيـاسة الإسلامية وإنها لا تعرف المخاتلة ولا الطعن من الخلف (بند رقم ١٦).

وفي ختام بنود الوثيقة المتعلقة بالتحالـف بين المهاجرين والأنصار يقرر البند رقم (٢٣) أن النبي(ﷺ) هـو المرجع الـوحيد في كل خـلاف يقع بين المسلمين في المدينـة: «وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد (ﷺ)».

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٦٧. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/ ١٦٨ وابن منظور: لسان العرب مادة (عقب).

(٢) سـورة المائـدة: أيـة ٥١.

(٣) سـورة آل عمـران: آيـة ٢٨.

* مجتمــــع شـــورى :

مارس العـرب قبل الإسلام الشـورى في نطاق مجلس القبيلة، ومـارست قريـش بمكة الشـورى من خـلال مجالـس العشائر ودار النـدوة التي تضـم رؤسـاء القبائل ورجـالا ت قريش، وقـد أفاد ذلك في تدريـب القبيلة على تبادل الرأي وتـلاقح الفكر والاستماع لرأي الآخرين. واستعمل الخطـاب القرآني كلمة (الشورى) وهي معروفـة عند العرب بمـعنى (استخـراج الرأى بمراجــعة البعض إلى البعــض)، يقصـد به: عــدم اسـتبداد الحاكـم بالـرأي ورجوعـه الى أهل الحل والعقـد وهم ممثلوا الأمـة من أهـل العلم أو النفـوذ. قال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمـر﴾[1] وقال: ﴿وأمرهم شورى بينـهم﴾[2] وسـميت السورة التي وردت فيها الآية الثانية بسورة الشورى، وهذا العموم في الآيتين يوحي بأن الشوري مطلوبة بإطلاق، خـاصة وأن سورة الشورى مكية قبل قيام دولة الإسـلام، التوجيه نحو الشورى مقصود به التربيـة والممارسة في الحياة اليومية وليس على صعيـد الدولة وأهل الحل والعقد فقـط. . كما أن الآية وردت في سياق وصف الأمـة الإسلامية وخصائصهـا المميزة ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمـرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾[3] وذكر الشـورى بين الصلاة والانفاق وهما عبـادتان يوضح المكـانة السامقـة للشورى وان تحقيقها فيـه معنى العبادة أيضـاً - حسب مفهومهـا الواسع - وأمـا أمر الله لرسـوله (ﷺ) بمشاورة المسلمين فإنه محمول على الوجوب إذ لا يوجد ما يصرف الأمر عن الوجوب عن القرائن. . وهو خطاب لكل حاكم مسلـم وليس خاصاً به. ثم ان الشورى لا تقتصر على صعيد الـدولة والحكـومة بـل تبدأ من الـوحدات الصغيرة المكـونة لـلأمة... وهكـذا أمر الزوجان بالتشاور عند اتخاذ قـرار فطام الطفل عند الطلاق ﴿فإن أرادا فصالاً عـن تراض منهما وتشـاور فـلا جنـاح عليهما﴾ .[4] وكان مجتمـع المدينة يشهـد أول تطبيق للشـورى السياسية في الإسلام إذ كانت الشورى في مكـة تقصر على الممارسات الفردية... والرسول (ﷺ) كان يشاور أصحابه منفردين ومجتمعين، فشاور سعد بن عبادة في موقف عبدالله بن أبي بن سلول المنـافق ومحاولته شق وحدة المسلمين في غـزوة بني المصطلق[5] ، وشـــاور

(١) ســورة آل عـمران : ١٥٩.

(٢) ســورة الشـــورى : ٣٨.

(٣) ســورة الشـــورى : ٣٦.

(٤) ســورة البــقرة : ٢٣٣.

(٥) صحيح البخاري البخاري (حديث رقم ٤٥٦٦).

الأنصار قبل خوض المعركة ببدر، وشاور أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في أسرى بدر، وشاور الصحابة مجتمعين في موضوع اختيار الخروج الى أحد أو البقاء في المدينة في غزوة أحد، وشاور زعماء الأنصار في دفع شطر تمر المدين لغطفان لتفك حصارها في غزوة الخندق. وشاور الصحابة في الاغارة على كعب بن لؤي وعمر بن لؤي في غزوة الحديبية قبل الوصول اليها، وشاور أم سلمة رضي الله عنها في كيفية اقناع المسلمين بنحر هديهم في الحديبية دون القيام بعمرة. وشاور عدداً من الصحابة في حادثة الإفك المشهورة[١]، وشاورهم في كيفية ايذان الناس بالصلاة[٢] . . قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ﷺ)».[٣]

ولا شك أن الشورى ضرب من الاجتهاد، فلا اجتهاد مع النص القطعي في دلالاته، وإلا كان ذلك اعتداء على النص الموحي به من الله، لذلك لما شاور النبي (ﷺ) زعماء الأنصار في دفع شطر تمر المدينة لغطفان في غزوة الخندق سألوه: «يارسول الله أوحي من السماء فالتسليم لأمر الله أم عن رأيك وهواك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فالوالله لقد رأيتنا واياهم على سواء، ما ينالون منا تمرة إلا شراء أو قرى».

وكانت الشورى تتم في أمور الحرب والسلم ومصالح الأمة العامة كما تتم على صعيد مصالح الأفراد، وكان المستشار ملزماً بالنصيحة واستنفاد الجهد في بيان الرأى الصالح «المستشار مؤتمن».[٤]

ويبدو من استعراض حالات الشورى التي تمت في مجتمع المدينة في عصر الرسالة، أن الشورى كانت ملزمة اذا اجتمعت آراء المستشارين كما حدث في استشارة زعماء الأنصار في غزوة الخندق حيث اتفقوا على عدم دفع التمر لغطفان مقابل تخليها عن الحصار وعمل به الرسول (ﷺ)، وكذلك عندما مالت الأكثرية الى الخروج في أحد وعمل به. إن القول بعدم الزامية الشورى قد يفضى إلى الاستبداد المقنع بالشورى - كما حدث في فترات طويلة من تاريخنا - فإذا كانت الأدلة على الزامية الشورى ليست قطعية الدلالة فيمكن أن يصار إلى الإلزام بها من باب المصالح وسد الذارئع، وإن الطريق إلى الشورى الملزمة هو تربية جماهير الأمة على الشورى في الحياة اليومية ابتداء من الوحدات الصغيرة بتنشئة الفرد

---

(١) و (٢) راجع أكرم العمري: المجتمع المدني (الجهاد ضد المشركين) و(الشوري في الإسلام جـ ١) اصدار المجتمع الملكي الاردني.

(٣) صحيح البخاري (حديث رقم ٢٧٣١).

(٤) جامع الترمذي ٤/ ٥٨٣ ى ٥٨٥. وقال هذا حديث حسن صحيح غريب.

المسلم وتربيته على الشورى ومعانيها وممارستها .

إن هذا التوجه العملي المرتبط بالتقوى وحده الذي يكفل ظهور قيادات مفكرة واعية صالحة لقيادة الأمة في منعطفات التاريخ الخطيرة . .

إن الأمة التي تشب على معاني التكافؤ واحترام الرأى وممارسة الشورى لا يمكنها التخلي عن حريتها أو التفريط بإرادتها أو الاستسلام المهين للطغاة المستبدين .

إن الخطاب السياسي ينبغي أن يتجه إلى ضمير الأمة أولاً ، وعندها سيكون فاعلاً في واقعنا ، وبذلك نتخلص من الاحباط الذي ارتهننا منذ بداية النهضة الحديثة .

* مجتمـــع جهـــادي :

شرح الجهاد لأول مرة في العهد المدني ، وقبل ذلك كان المسلمون مأمورين بعدم استعمال القوة في مواجهة المشركين وأذاهم فكان الشعار المعلن (كفوا أيديكم أقيموا الصلاة) [1] ، فقد كانت الدعوة في المرحلة المكية جديدة مثل النبتة الصغيرة تحتاج الى الماء والغذاء والوقت لترسخ جذورها وتقوى على مواجهة العواصف ، فلو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بحد السيف فإنهم يجتثونها ويقضون عليها من أول الأمر ، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين ، أن يتجهوا إلى تربية أنفسهم ونشر دعوتهم . .

لما قامت للإسلام دولة في المدينة شرع الله الجهاد دفاعاً عن النفس فقط في أول الأمر ثم أذن بمبادرة للعدو للتمكين للعقيدة من الانتشار دون عقبات ولصرف الفتنة عن الناس ليتمكنوا من اختيار الدين الحق بإرادتهم الحرة **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾** . [2]

قد التزم المقاتلون المسلمون بضوابط الحق والعدل والرحمة فسجل التأريخ لهم انضباطهم الدقيق حيث لم ترد أية اشارة الى القيام بمجازر أو سلب الأموال أو الاعتداء على الأعراض في المناطق المفتوحة مما يقع عادة في الحروب المدنية خلال مراحل التاريخ المختلفة ... وقبل ذلك كله لم تفرض العقيدة الإسلامية بالقوة على سكان المناطق المفتوحة ... بل سمح لأهل الكتاب المحافظة على أديانهم الأخرى ، لازالوا يعيشون بأديانهم حتى الوقت الحاضر بسبب السماحة الدينية .

كان رسول الله (ﷺ) يبين للمسلمين ضرورة اقتران النية بالجهاد وأن لا يكون الدافع إلى القتال الحصو ل على الغنائم أو الرغبة في الشهرة أو المجد الشخصي أو الوطني فقد سئل رسول الله (ﷺ) عن الرجل قاتل شجاعة ويقاتل حماية ويقاتل رياءاً أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» . [3] بل لابد من إخلاص النية لله بأن لا يقترن القصد من الجهاد بأي غرض دنيوي لأن الله لا

---

(١) سورة النساء : ٧٧ . (٢) سورة الأنفال : ٣٩ .

(٣) رواه مسلم : الصحيح ٣/ ١٥١٣ حديث رقم ١٩٠٤ . وأخرجه البخاري بلفظ مقارب / ٢٢٢ حديث رقم ١٢٣ و ٦ / ٢٨ حديث رقم ٢٨١٠ .

يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتغي به وجهه.[٤]

وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «تضمنّ الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامنٌ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده! ما من كَلْمْ - أي جرح - يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كَلْمْ، لونه لون دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده! لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلال سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحلمهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده! لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».[١]

ومن الصعب تقديم النماذج الكثيرة التي توضح أثر هذه التوجيهات النبوية على نفسية المقاتل المسلم، ولكن يمكن اختيار نموذجين لمقاتلين من عامة الجند، فقد قال رسول الله (ﷺ) للمسلمين اثناء القتال في غزوة أحد: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض!؟

قال: نعم.

قال: بخٍ بخٍ (كلمة تقال لتعظيم الأمر في الخير).

فقال رسول الله (ﷺ): ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟

قال: «والله يارسول الله ألا رجاءة أن أكون من أهلها.

قال: فإنك من أهلها.

فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.[٢] فهذا النموذج الأول وأما الثاني: فقد صح أن أعرابياً شهد فتح خيبر أراد النبي (ﷺ) اثناء المعركة أن يقسم له قسماً وكان غائباً، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به الى النبي (ﷺ) فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا - وأشار الى حلقه - بسهم فأدخل الجنة. قال: إن تصدق الله يصدقك.

(١) حديث صحيح أخرجه النسائي: السنن ٥/ ٢٥.

(٢) رواه مسلم: الصحيح ٣/ ١٤٩٥ حديث رقم ١٨٧٦.

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٩ - ١٥١٠ حديث رقم ١٩٠١.

قال : فلبثوا قليلاً . ثم نهضـوا في قتال العدو فأتي به يحمل قد أصابـه سهم حيث أشار، فكفنه النبـي (ﷺ) بجبته وصلى عليـه ودعا له، فكـان مما قال : «اللهـم هذا عبـدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، وأنا عليه شهيد» .[1] ألا إن هذه الرواية شاهد قوي على ما يبلغـه الايمان من نفس أعـرابي ألف حياة الغزو والسلـب والنهب في الجاهلية فـإذا به لا يقبل ثمناً لجهاده إلا الجنة، فكيف يبلغ الايمان إذاً مـن نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله (ﷺ)؟!

وقـد ظهرت آثـار التربية المحمـديـة في مواقـف قـادة الفتح الاسـلامى، فلنستمـع الى الصحابي الجليـل عبادة بـن الصامت (رضي الله عنـه) وهو يرد على المقـوقس حـاكم مصر عندما حـاول إقناعه بالعدول عن فتـح مصر بأن هدده بجموع الروم، ولوح لـه بالأموال ليغريه بها، قـال عبادة : «ياهذا، لا تغرن نفسـك ولا أصحابك، أما ما تخوفنـا به من جمع الروم، وعـددهم وكثرتهم، وأنـا لا نقوى عليهم، فلعمرى مـا هذا الذي تخوفنـا به، ولا بالذي يردنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقا، وإنا منكم على إحدى الحسنيين إما أن تعظم لنا غنيمة الـدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمـة الآخرة ان ظفرتم بنا، وإن الله عـز وجل قال في كتابه العزيز : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وما منا رجل إلا وهو يدعو ربـه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهـادة ، وأن لا يرده الى بلده ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همٌ فيما خلفه من أهل وولد، وقد استودع كل واحد منا ربـه أهله وولـده، وإنما همنا الجهاد في سبيـل الله، وإعلاء كلمته، وأمـا قولـك : إنا في ضيق وشدة من معـاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعـة، لو كانت الدنيا كلهـا لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر ممـا نحن فيه»[2] ، وكلام عبادة بن الصامت هـذا يؤكد صياغة الاسلام للشخصية على أسـاس متين من حـب الله والرسـول والجهاد وحـب الشهادة والتطلـع إلى الأخرة، والزهد في الـدنيا فلا يبقى أمام المسلم عائق يحول بينـه وبين تبليغ دعوة الإسلام وقول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولما سأل رستـم قائد الفـرس ربعي بـن عامـر عن سبـب خروج المسلمين مـن جزيـرة العرب لفتح العراق وعـرض عليه المال والكساء والطعام مقابل عودته ظـاناً أنهم يريدون الغنيمة من خـروجهم أجابه ربعي مـوضحاً أهداف الفتح : «الله ابتعثنا لنخـرج العباد من

---

(١) مصـنف عبـد الـرزاق ٥ / ٢٧٦ .

(٢) فـتوح مصـر ٦١ .

عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». [1]

وقد تكررت الأقوال وتضافرت التصريحات التي صدرت من قادة المسلمين في جبهات القتال الواسعة تؤكد هذا المعنى، وقد حوى كتاب (فتوح الشام) للأزدي خاصة وبقية المصادر التاريخية عامة على كثير من الرسائل المتبادلة بين الخلفاء الراشدين وقادتهم وكلهم تفوح بشذي الايمان وتعبق بمعاني الهداية ووصايا الرحمة ومنع قتل النساء والأطفال والشيوخ ومن لا يقاتل من الفلاحين. فلا غرابة إذا ما أقبل سكان البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام والانضمام الى قوافل المجاهدين، ولا عجب إذا ما بقى الإسلام في البلاد المفتوحة قروناً طويلة راسخ الجذور عميق الآثار مهيمناً على الحياة التشريعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مقيماً لحضارة شامخة الصرح وطيدة الأركان، تتسم بالجمع بين الرفعة الروحية والعمران المادي، في حين ضاعت آثار فتوح الإسكندر وهنيبال وغيرهم من قادة الفتوح الاستعمارية، فشتان ما بين الفتحين والحضارتين **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**. [2]

---

(١) الطبري ٣/ ٥٢٠.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

* مجتمـــع تشـــارك المـــرأة في بنائـــه :

قال تعـالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمـون الصلاة ويؤتـون الزكاة ويطيعـون الله ورسوله أولئـك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾.(١)

اهتم الإسـلام بالمرأة وتـربيتها ورعـايتها اهتمامه بـالرجـل، فهي مكلفـة مثل الـرجل بتـوحيد الله وعبـادته، والالتـزام بأحكـام شريعته، وهـي تبايـع الر ئيس الأعلي للدولـة الإسلاميـة على الطاعة، وتشترك في حمايـة المجتمع عنـدما يتعرض للخطـر وإن لم يفرض عليها القتال.

ونتيجـة هذا الاهتمام الـذي أبـداه الإسـلام نحو المرأة مما لم يكـن معـروفاً في الأنظمـة والفلسفات التي سبقته والتي كان بعض أتبـاعها يناقشون إن كان للمرأة روح أم لا؟ أقول نتيجة هذه الرعاية للمرأة والعناية بتربيتها وتثقيفها وتفقيهها بمعاني العقيدة ومعالم الشريعة وتعليمها القـرآن والسنة برزت نسـوة مسلمات سجلن مواقف خـالدة منبثقة مـن التصور الإسلامي... ولأهمية ذلك أعرض بعض مـواقفهن من الأحداث الجسيمة، وكيف غلبن مصلحة حفظ الدين على حفـظ النفس، وصبرن على فقد الآباء والأبناء والأزواج دون أن يتذمرن ما دام ذلك في سبيل الله ونصرة دينه القويم.

ويبـدأ موقـف المرأة من حمل الإسـلام والذود عـن حياضـه منذ أول ظهـوره في الفترة المكية، وكـان أول من آمـن بهذا الدين واتبـع نبيه امرأة هـي خديجة (رضي الله عنهـا) التي بذلت كل ما في وسعها في خدمة رسول الله ودعوته، فكانت تؤازره وتخفف عنه ما يلقاه في سبيل الله وقد سخـرت أموالها في سبيل الله وأغاثـت المسلمين بالطعام عندمـا حوصروا في شعب أبي طالب ومنعت عنهم الأقوات.

وكانـت ممن سارع إلى الإسلام مـن النساء فاطمـة بنت الخطاب حيث تصـدت لأخيها عمر قبل إسلامه، وتحملت لطمته لها، وسال دمها في سبيل الله.(٢)

وسجلت المرأة المسلمة موقفاً متقدماً عنـدما شهدت امرأتان هما أم عمارة بنت كعب - إحدى نساء بني مـازن - وأسماء بنت عمرو - احدى نساء بني سلمة - بيعـة العقبة الثانية التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً من الأنصار.(٣)

(١) سـورة التوبـة: ٧١. (٢) ابن هشام: سيرة ١/ ٣٤٢-٣٤٦. (٣) البخاري: فتح الباري ٧/ ٢٢١.

وشاركت عدة نساء في الخروج إلى الحبشة في الهجرة الأولى فرارا من أذى المشركين وحفاظاً على إيمانهن في الفتنة بمكة وكان منهن أم حبيبة بنت أبي سفيان (رضي الله عنها) التي صارت بعد ذلك من أمهات المؤمنين، ورقية بنت الرسول (ﷺ) وزوجة عثمان بن عفان (رضي الله عنهما) صحبته في هجرته إلى الحبشة.

وقد سجلت بعض النسوة مواقف سامية في الثبات على العقيدة والاستعلاء على الباطل وتحدي الطغيان منهن سمية مولاة بني مخزوم وأم عمار بن ياسر (رضي الله عنهما) حيث صمدت أمام التعذيب حتي نالت الشهادة، ومن النساء المسلمات اللواتي صمدن للأذى حتى هيأ الله لهن الخلاص أم عبيس وزنيرة والنهدية وابنتها وكانت الاخيرتان جاريتين لامرأة من بني عبد الدار فاشتراهن الصديق (رضي الله عنه) بماله وأعتقهن، كما إشترى جارية كان عمر (رضي الله عنه) قبل إسلامه يعذبها ويضربها حتى يمل، فاعتقها الصديق.[1] وأسماء بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) التي سارعت إلى الدخول في الإسلام مع أبيها، وخاطرت بنفسها عندما حملت الطعام إلى الرسول (ﷺ) وأبيها في غار ثور في حادث الهجرة وقد شقت نطاقها نصفين لتحمل به الطعام فلقبت بـ«ذات النطاقين».

وشاركت المرأة في الهجرة إلى المدينة، فهاجرت نسوة مؤمنات، وتحملن مفارقة الأهل والديار في سبيل العقيدة.. فها هي أم سلمة تخرج مع زوجها وولدها مهاجرة، فيمنعها أهلها وولدها من الهجرة، فيهاجر زوجها وحده، ومكثت صابرة محتسبة وقلبها دام وعينها لا ترقأ حتى أشفق عليها بعض القوم وتركوها تهاجر لتلحق بزوجها.

ثم كانت المرحلة المدنية من تاريخ الدعوة الاسلامية، وقامت دولة الإسلام وتألب عليها المشركو ن واليهود من كل مكان، وفرض القتال على المسلمين، فشاركت المرأة في أحداث الجهاد بأساليب متنوعة، وذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية قاتلت يوم أحد المشركين وذبّت عن الرسول الكريم بنفسها ورمت بالقوس عنه واستقبلت السهام دونه حتى جرحت جرحاً عميقا.[2] وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين وأم سليم وأم سليط يملأن القرب للمسلمين في أحد ويسقين الجيش كما في صحيح البخاري.[3] وكانت فاطمة (رضي الله عنها) تغسل جرح الرسول (ﷺ) بأحد ولما

(١) ابن هشام: سيرة ١/ ٣١٧ - ٣١٩. (٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٣٢.

(٣) البخاري: فتح الباري ٦/ ٨، و ٧/ ٣٦٦.

رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم.[1] وكانت حمنة بنت جحش الأسدى تسقى العطشى وتداوي الجرحى بأحد[2] ولما انتهت المعركة أخبرت أن أخاها قد قتل فاسترجعت وترحمت عليه ثم أخبرت أن خالها حمزة قد قتل فاسترجعت واستغفرت له، ثم اخبرت أن زوجها مصعب بن عمير قد قتل فصاحت وولولت، فقال رسول الله (ﷺ): «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها.[3] ومر رسول الله (ﷺ) بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله (ﷺ) بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: خيراً ياأم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشير إليه حتى إذا رأيته قالت: كل مصيبة بعدك جلل- تريد صغيرة-.[4]

وفي أعقاب أحد أيضاً أقبلت صفية بنت عبدالمطلب تسأل عن أخيها حمزة بن عبدالمطلب، وكانت تحبه حباً شديداً حتى خشى الرسول (ﷺ) على عقلها إذا أخبرت بمصرعه. وتمثيل المشركين به، فوضع الرسول (ﷺ) يده على صدرها ودعا لها، فاسترجعت وبكت وأحضرت أكفانه محتسبة ذلك عند الله تعالي.[5] ولصفية (رضي الله عنها) موقف آخر في غزوة الخندق يدل على شجاعتها ورباطة جأشها. فقد حاصرت الأحزاب المدينة، ونقض يهود بني قريظة الصلح، وجعل بعضهم يتجول بالقرب من حصون المسلمين، وليس فيها سوى النساء والأطفال، فلما مر أحدهم بالحصن الذي فيه صفية أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته به حتى قتلته ورجعت إلى الحصن.[6] وعن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا نغزو مع النبي (ﷺ) فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى الى المدينة».[7] وعن أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله (ﷺ) سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحي وأقوم على المرضى».[8] وقد سجلت أم سليم الأنصارية مواقف رائعة تدل على عميق

(١) البخاري: فتح الباري ،/ ٣٧٢ حديث رقم ٤٠٧٥.
(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٩ / ٢٦٢.
(٣) أخرجه ابن اسحاق مرسلاً وأخرج ابن ماجة نحوه موصولاً. ابن هشام: سيرة ٣/ ٥٥. وسنن ابن ماجة ١/ ٥٠٧.
(٤) ابن هشام: سيرة ٣/ ٥٧ بإسناد صحيح.
(٥) أحمد شاكر: مسند أحمد ٣/ ١٢ وابن سعد، الطبقات ٣/ ١٤.
(٦) ابن هشام: سيرة.
(٧) البخاري: فتح الباري ٦/ ٨٠ حديث رقم ٢٨٨٣.
(٨) مسلم: الصحيح ٣/ ١٤٤٧ حديث رقم ١٨١٢.

وعيها بالإسلام وتقديرها لعظمته حتى جعلت الإسلام صداقها الوحيد، فقد خطبها أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) قبل إسلامه فقالت: يـاأبا طلحة ألسـت تعلم إن إلهك الذي تعبد خشبة نبتت من الأرض نجرهـا حبشي بني فلان!! إن أنت أسلمت لم أرد منك من الصداق غيره، قال: حتى أنظر في أمري، قالت: فذهب، ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فتزوجته رضي الله عنهما[١]، وعن أنس بن مالك: «أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معهـا، فرآها أبو طلحة فقال: يارسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله (ﷺ) ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته ان دنا مني أحد مـن المشركين بقرت بـه بطنه، فجعـل رسول الله (ﷺ) يضحك قالت: يارسول الله اقْتُل من بَعْدَنا من الطلقاء انهزموا بـك، فقال رسول الله (ﷺ): ياأم سليم إن الله قد كفى وأحسن».[٢]

وكانـت رفيدة الأسلمية تـداوي الجرحى، وتحتسب بنفسهـا على خدمـة من كانـت به ضيعة مـن المسلمين، حتى عهـد لها رسول الله (ﷺ) القيـام على مداواة سعـد بن معـاذ في خيمتها داخل مسجده.[٣]

وبعد فهذه الأحاديث والآثار تكشف عـن اضطلاع المرأة المسلمة بمسؤوليتها التاريخية تجاه رسالة الإسـلام في الحياة العامة والجهـاد الإسلامي بالاضـافة إلى مسؤوليتها في تـربية أبنائهـا وفق تعاليـم الإسلام، وهي مهمـة عظيمة في تكويـن اللبنات الجديدة التـي تكفل لصرح الإسلام الخالد التجدد والنماء.

ولم تقتصر مسؤولية المرأة المسلمـة في دعم رسالة الإسـلام على مساندة حركـة الجهاد، وتقديم الخدمات للمجاهدين في سوح الوغى، ودفع فلذات أكبادهن إلى ميادين القتال، والصبر على مفارقـة الزوج والأهل والـولد، بل كانـت لبعضهن مسؤوليـة كبيرة في الحياة الاجتماعية سواء بنشر العلم أو مواساة الفقراء أو السعي في مصالح الناس.

وسوف اقتصر على نماذج مـن حياة اثنتين مـن أمهات المؤمنين أزواج النبـي (ﷺ) فهن مثل أعلى للمرأة المسلمة في كـل زمان ومكان - هما زينب بنت خزيمـة أم المساكين وعائشة (رضي الله عنهما): كانـت أم المؤمنين زينب بنت خـزيمة تلقب بـأم المساكين لرعـايتها لهم

(١) مسلم: الصحيح ٣/ ١٤٤٢ حديث رقم ١٨٠٩.
(٢) ابن هشام: سيرة ٣/ ٧١٩ - ٧٢٠ عن ابن اسحق بدون اسناد.
(٣) الحـاكم: المسـتدرك ٢/ ١٧٩.

وإنفاقهـا عليهم ... قالت عـائشة : «لم أر امرأة قـط خيراً في الدين من زينـب، وأتقى لله، وأصدق حديثـاً، وأوصل للرحم، وأعظم صـدقة، وأشد ابتذالاً لنفسهـا في العمل الذي تصدق به، وتَقَربُ به إلى الله تعالى»،[٣] وسمعت عائشة (رضي الله عنها) تقول حين بلغها نعي زينب: «لقد ذهبت حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل»[٤] وقالت: قال رسول الله (ﷺ) «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً... فكنا إذا اجتمعنـا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله (ﷺ) نمـد أيدينـا في الجدار نتطاول، فلـم نزل نفعـل ذلك حتـى توفيـت زينب بنـت جحش، ولم تكن بـأطولنا، فعرفنا حينئـذ، أن النبي (ﷺ) إنما أراد طول اليد بـالصدقة، وكانت زينت امرأة صناع اليـدين تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله»،[١] وقد أرسـل لها أمير المؤمنين عمر بـن الخطاب (رضي الله عنـه) عطاءها اثنـى عشر ألفاً، فجعلـت تقول: «اللهم لا يدركني هذا المال مـن قابل فإنه فتنة» ثم قسمته في أهـل رحمها وفي أهل الحاجة، فبلغ عمر فقـال: هذه امرأة يراد بها خير فوقـف عليها وأرسل بالسلام وقـال: «بلغني ما فرقت، فأرسل بألف درهـم تستبقينها» فسلكت به ذلك المسلك[٢] وحين حضرتها الوفـاة سنة عَشرين للهجرة قالت: «إني قد أعددت كفني، وإن عمر سيبعث إليّ بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتـم أن تتصدقوا بحقوي فـافعلوا».[٣] وهكـذا عاشـت أم المؤمنين زينـت بنت خـزيمة حيـاتها في مواسـاة الناس فكـانت بحـق «أم المساكين» وكـانت آخـر وصاياها وهي تودع الحياة التصدق بآخر ما تملك من متاع الدنيا...

أما عائشة (رضي الله عنها) فقد كانت أفقه نساء عصرها. ومن أفقه أهل عصرها رجالاً ونساءاً، فهـي مرجع في أحكـام الدين، وخاصـة ما يتعلق منهـا بالمرأة، وهي مـرجع في معرفـة أحوال الرسول (ﷺ) وخـاصة في بيته، وهـي مثال للمرأة المسلمة المثقفـة... قال الإمام الزهـري: «لو جمع علم عائشـة الى علم جميع أزواج النبي (ﷺ) وعلـم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل»[٤] والعلم في وقت الزهري يطلق على النص أو الحديث، لكن عائشة لم تقتصر في ثقافتها على حفظ أحكام الدين وأحاديث الرسول (ﷺ) بل كانت ملمة بثقافة عصرها، قال عروة بن الزبير - وهـو ابن اختها -: «وما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا بشعـر من عـائشة»[٥] وقال حسان بـن ثابت: «مارأيت أحداً أعلـم بالقرآن ولا

(١) مسلم: الصحيح ٤/ ١٨٩٢ حديث رقم ٢٤٤٢.
(٢) ابن حجر: الاصابة ٧/ ٦٧٠.
(٣) ابن حجر: الاصابة ٧/ ٦٦٩.
(٤) ابن حجر: الاصابة ٧/ ٦٧٠.
(٥) ابن حجر: الاصابة ٧/ ٦٦٩.
(٦) ابن حجر: الاصابة ٨/ ١٨.
(٧) ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٨٨٥.

بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة» .[1] وقد روت عنها كتب الحديث ألفين ومائة وعشرة أحاديث، وهو قدر يكشف عن سعة دائرتها في الرواية والعلم، وألف الزركشي كتاباً في ما استدركته عائشة على الصحابة رضوان الله عليهم في مجالات الأحكام والسنة، وهو يبين دقة فهمها وعمق فقهها وقوة ذاكرتها وفرط ذكائها وسرعة بديهتها ورقي تعبيرها وقدرتها على المحاجة والبيان، فضلاً عن نضج شخصيتها ومعرفتها بطبائع الإنسان وسنن الاجتماع ... سألتها امرأة عن مسألة تتعلق بالتجميل فأجابتها: «إن كان لك زوج» فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي» .[2] ولم تكن عائشة (رضي الله عنها) أقل اهتماماً بمصالح العامة من زينب بنت خزيمة، بل كنت كثيرة الصدقة والانفاق في سبيل الله ... بعث إليها معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف، فأنفقتها في مصالح الناس في شهر واحد!! فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فأجابتها: ألا ذكرتني .[3] ولا عجب ان تنسى ذاتها وهي في غمرة التفكير بمصالح المسلمين وسد ثغرات المجتمع ورعاية أبنائه .

ولا يمكن تناسي الأثر الكبير الذي تركته أم المؤمنين عائشة على حياة نساء عصرها، وخاصة في تعريفهن بأمور الدين وتربيتهن على تعاليمه وأخذهن بمنهجه ... قالت رميثة - جدة عاصم بن عمر بن قتادة - «أصبحت عند عائشة، فلما أصبحنا قامت فاغتسلت، ثم دخلت بيتاً لها، وأجافت - أي ردت - الباب دوني، فقلت: ياأم المؤمنين، ما أصبحت عندك إلا من أجل هذه الساعة، قالت: فادخلي، فدخلت، فصلت ثمان ركعات لا ادري أقيامهن أطول أو ركوعهن أم سجودهن، ثم التفت إليّ فضربت فخذي ثم قالت: «يارميثة رأيت رسول الله (ﷺ) يصليهن، ولو نشر لي أبي على تركهن ما تركتهن»[3] وهذه الرواية تبين حرص الصحابيات على معرفة تعاليم الإسلام واختيار القدوة الصالحة في ذلك، فلم يكتفين بحفظ القرآن والحديث بل لجأن الى معرفة التطبيق العملي للأحكام والسنن حرصاً على دقة الفهم وتطابق العمل مع النصوص . . فنرى رميثة تبيت في منزل عائشة (رضي الله عنها) للاطلاع على منهجها في العبادة وما تصنع في ليلها ونهارها في طاعة

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ / ٢٧ .
(٢) البخاري .
(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ / ٢٨ .
(٤) أبو يعلى : مسند ٤١٧ ، ومالك : الموطأ ١٠٨ مختصراً . (ورجال اسناده ثقات إلا أحدهم فهو صدوق فالحديث حسن) .

الله تعالى، ويلاحظ حرص عائشة على أن تعبد الله في خلوة عن الناس ودون أن تظهر ذلك لضيفتها فردت عليها الباب، قاصدة إخلاص النية والبعد عن الرياء، لكن الضيفة أظهرت قصدها من الحرص على رؤية صلاة عائشة وأنها تريد أن تتعلم منها، فأذنت لها وصلّت أمامها صلاة الضحى، وأخبرتها بأنها «السنة» وحثتها على العبادة وعلى صلاة التطوع تذوقاً للعبادة ورغبة في الثواب، وما أعجب قولها: «ولو نشر لي أبي على تركهن ما تركتهن»...

رحم الله الصديقة بنت الصديق عائشة ورحم الله أم المساكين زينب بنت خزيمة فقد كانتا قدوة في الخير والعبادة والإحسان...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.